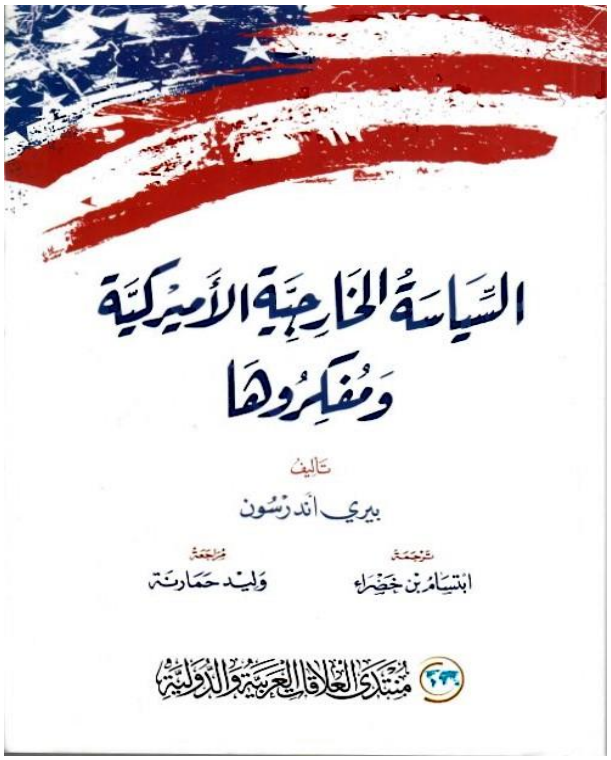

مراجعة مقال

السياسة الخارجية الأمريكية ومُفكرُوها

American Foreign Policy and Its Thinkers

للمؤلف الكاتب : بيري أندرسُون

قراءة بقلم : أ.م.د. صلاح مهدي هادي الشمري

العراق ـ جامعة النهرين / كلية العلوم السياسية ـ قسم الإستراتيجية

يعد (بيري أندرسون) من أبرز المؤرخين واحد اقطاب الفكر الليبرالي اليساري في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم، وهو بريطاني الأصل ولد في لندن بتاريخ 1938/9/11م، انتهى به المقام استاذاً في جامعة كاليفورنيا الأمريكية. وميزة نقد أو طرح (بيري أندرسون) انه انتقد الرأسمالية من داخلها، فهو البريطاني الذي انتهى به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية ويتحدث من داخل دولتين، والتي تعد من أهم الدول الرائدة في القسم الرأسمالي. فعين (بيري أندرسون) التقطت ما عجزت أعين الذين حالت ضبابية الأيديولوجيا اليمينية المتصاعدة، أو الانتماء إلى هذا العالم الجديد المهيمن عن رؤيته في الخطوط البارزة للسياسة الخارجية الأمريكية منذ نشأت الولايات المتحدة حتى يومنا هذا .

قسم (بيري أندرسون) كتابه (السياسة الخارجية الأمريكية ومُفكرُوها)، الذي يعد أحد الكتب المفتاحية لفهم السياسة الخارجية الأمريكية، إلى قسمين، قدم فيه توصيفاً للمنظومة الإمبريالية الأمريكية التي تغطي كل أنحاء العالم في عصرنا الحالي، هذان القسمان هما:

- القسم الأول / السلطة الإمبراطورية، إذ تتبع فيه أبرز منعطفات السياسة الخارجية الأمريكية، وتشكلها ابان (الحرب الباردة)، وتحولاتها بعد انهيار (الاتحاد السوفيتي).
- القسم الثاني / المجمع، تناول فيه أبرز منظري السياسة الخارجية الأمريكية وباختلاف توجهاتهم.

ميزة الكتاب في قسمه الأول (السلطة الإمبراطورية)، كونه تدرج تاريخياً ليمر على كل المراحل والمحطات التي شكلت السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية. إذ يبدأ (بيري أندرسون) في القسم الأول الذي اطلق عليه (السلطة الإمبراطورية) بتتبع منعطفات السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية حتى يومنا هذا، أوضح فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية بلد أسس في مكان جغرافي جعله مفصولاً عن العالم، وكان للتوسعات الأمريكية في البداية تحدث في محيطها القريب، وخلال مدة طويلة توسعت الولايات المتحدة الأمريكية من (ثلاثة عشر ولاية) إلى (خمسون ولاية)، ومقاطعة فيدرالية واحدة (واشنطن العاصمة).

ويذهب (بيري أندرسون) إلى القول أن الموقع الجغرافي للولايات المتحدة الأمريكية جعل هذه الدولة ترى نفسها بين مبدأين هما: (الاستثنائية Exceptionalism)، ومبدأ (الكونية Universalism).

فالمبدأ الأول/ (الاستثنائية Exceptionalism)، يذهب فيه إلى ان الولايات المتحدة فيها استثنائية (ثقافية، وفكرية، وجغرافية) نوعاً ما. أما المبدأ الثاني/ (الكونية Universalism)، يصور فيه التطلعات والتي قادت هذا البلد إلى العالم، والخروج خارج حدود الولايات المتحدة . فالولايات المتحدة الأمريكية لاتقتصر حدودها على تلك الخطوط الطبيعية التي تفصل الدول عادة، بل تتجاوز ذلك لتصل إلى ما وصل اليه (المال، وهيمنة اقتصاد الشركات الكبرى "في ارجاء العالم المختلفة"). هذه السمة (الاقتصادية الرأسمالية) ، فضلاً عن (السمة الدينية) المتمثلة بالعناية الإلهية بالانتشار، وامتلاك كامل القارة وللقيام بالتجربة العظيمة للحرية والحكم الذاتي الفيدرالي، شكلت سمتا السياسة الخارجية الأمريكية، إذ لم تمض سوى مدة وجيزة حتى جرى ضم نصف أراضي المكسيك. إذ يشير(بيري أندرسون): (ما أن اتسعت حدود الولايات المتحدة الأمريكية لتصبح قريباً ما هي عليه الآن، حتى بدا الإحساس بالمستقبل يكتسب شكلاً تجارياً أكثر منه مناطقياً، وبدل الجنوب، توجهت الأنظار نحو الغرب).

لقد كان مفهوما (الاستثنائية Exceptionalism)، ومبدأ (الكونية Universalism)، منذ البداية، يمثلان احتمال مركب غير مستقر. فقد كان الإيمان الراسخ بالاستثنائية يسمح بالاعتقاد أن بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية الحفاظ على فضائلها الفريدة فقط من خلال بقائها مجتمعاً منفصلاً عن عالم متهالك. أما الالتزام بالكونية فقد كان يمنح الولايات المتحدة الأمريكية صلاحية القيام بأنشطة رسولية (Messianic) لتخليص هذا العالم.

يشير الكاتب، أيضاً، إلى أن أهم محطة في السياسة الخارجية الأمريكية هي (الحرب العالمية الأولى) ومبادئ الرئيس الأمريكي (Wilson Woodrow) الأربعة عشر (The Fourteen Points) التي اعلنها آنذاك، والتي كانت محاولة لمواجهة شجب (لينين Lenin) للمعاهدات السرية والحكم الإمبريالي، إذ تميزت بصورة أساسية إلى تبني (سياسة الباب المفتوح) عالمياً بـ"إزالة كل الحواجز الاقتصادية"، بالقدر الممكن ـ وإلى "تعديل نزيه" وليس إلغاء "كل المطالبات الكولونيالية".

والمحطة الأهم والاخطر والتي شكلت كل السياسات الخارجية الأمريكية، هي (الحرب العالمية الثانية). كونها أي الحرب أظهرت كامل الهيمنة الأمريكية. إذ كان لعملية إعادة التسليح دوراً في دعم عملية التعافي من الضعف (الذي برز خلال مدة الكساد عام 1937م) داخل البلاد، وهو ما وفر دفعاً جديداً لبرامج الصفقة الجديدة. ومنذ تلك اللحظة ارتبطت المصائر الداخلية للاقتصاد الأمريكي بالمواقف الخارجية للدولة الأمريكية، كما لم يرتبطا من قبل.

في اعقاب الحرب العالمية الثانية، تبلورت السياسة الخارجية الأمريكية، بصورة تستوعب موقع الولايات المتحدة الأمريكية عالمياً، من جانبها وجدت (الشيوعية) أرضاً وأنظمة تبشر بها، وتنشرها في محيطها الإقليمي. فمع اندلاع الحرب الباردة، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تدافع عن الرأسمالية ـ كان يجري تفادي هذا التعبير بحذر، كونه أحد المفردات التي يستخدمها العدو ـ بل كانت تدافع عن العالم الحر في مواجهة العبودية الشمولية للشيوعية. كما أفضى المقال المشهور لـ (جورج كينان Kennan George) بعنوان (X Article) في تموز عام 1947م، والذي كان له دور كبير في تقديم إستراتيجية الاحتواءليبدأ عصر الحرب الباردة بين معسكرين متصارعين ("الرأسمالية الغربية" بقيادة الولايات المتحدة)، و ("الشيوعية" بقيادة الاتحاد السوفيتي "السابق")، وكانت دول العالم الثالث ساحة هذا الصراع. تناغم العالم الحر مع الديكتاتورية، والتي تقاسمت دول العالم الثالث، ولم تكن الحرية التي تميزه هي حرية المواطنين، بل حرية الرأسمال ـ العامل المشترك بين فقرائه واغنيائه،

وبين الدول المستقلة والمستعمرة، وبين المناطق المعتدلة والاستوائية، على السواء. ويضيف (بيري أندرسون) إلى ان الجدلات التي حصلت في الحرب العالمية الثانية لم تتوصل إلى تحديد البنية العامة للعلاقات بين الدولة والرأسمال في العصر الحديث، وتحديد الصيغة التاريخية المحددة التي اكتسبتها تلك العلاقات في الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما حان الوقت المناسب، أي عندما تحولت الملكيات الاستبدادية إلى دول وطنية رأسمالية، انفصلت القوتات الاقتصادية والسياسية، اللتان كانتا مندمجتين في نظام إقطاعي، انفصالاً بنوياً. وجدت تلك الدول نفسها كما وضحها (روبرت برينر Robert Brenner) في شقين، هما:

1- لم يكن بوسع تلك الدول معارضة مصالح الرأسمال دون تقويض نفسها، بما أن قوتها كانت تعتمد على ازدهار اقتصادٍ تحكمه متطلبات الربحية.
2- لم يكن بوسع أنشطة الدول أن تخضع لنفس المجموعة من المحفزات والقيود التي تتحكم بالشركات.

ويتسأل (بيري أندرسون)، إذا كان هدف رأس المال هو تحقيق الربح. ما هو هدف الدولة المماثل له؟، ليجيبب بالقول: (وبتعبير مهذب هو "الأمن")، الذي تصادف ظهوره، بوصفه التعريف التقليدي للهدف النهائي للدولة، بعد عام 1945م، مع تسامي وزارات الحرب إلى وزارة الدفاع. كان هذا التعبير ـ وما زال ـ رغم غموضه الذي يشبه غموض بعض التعابير الأخرى، مناسباً على نحو مثالي للاستخدام الأيديولوجي الذي يناسب كل الأغراض. ويضيف (بيري أندرسون)، لقد لفت (سبايكمان) الانتباه، برصانة، إلى الحقيقة الكامنة خلف هذا التعبير: (الصراع على القوة شبيه بالصراع على البقاء، فتحسين موقع القوة النسبي يصبح الهدف الرئيس لسياسات الدول الداخلية والخارجية، إذ لا يوجد أمن حقيقي في كون الدولة قوية بمقدار قوة عدو محتمل، هناك أمن فقط في كونها أقوى بقليل. وبعد عام 1945م، حتى هذا القليل أصبح فكرة عفا عليها الزمن).

كانت نهاية الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشيوعي خاتمة عهد. أصبحت فيه الولايات المتحدة الأمريكية القوى العظمى الوحيدة الأولى من نوعها في تاريخ العالم. وأصبحت حرب الخليج عام 1991م هي أول حرب يعلنها الرئيس (بوش "الأب")، مؤشراً على مجيء نظام عالمي جديد.

بعد ذلك، أصبحت التجارة أهم ما يشكل السياسة الخارجية الأمريكية، فضلاً عن عناصر أخرى. فعندما تسلم الرئيس (كلينتون) المنصب، كانت أولويته إنشاء نظام ليبرالي للتجارة الحرة ضمن منظومة عالمية شاملة تأتمر بتعليمات الولايات المتحدة الأمريكية. نتذكر منها (اتفاقية التجارة الحرة في شمال أمريكا NAFTA)، وتحويل الاتفاقية العامة للتعرفات التجارية إلى منظمة التجارة العالمية لتكون البنية الرسمية لسوق عالمي للرأسمال الآتي. وضمن البنية المذكورة، أصبح بإمكان الولايات المتحدة القيام بدور أكثر حسماً من ذي قبل في صياغة عالم رأسمالي ناشئ، حسب متطلباتها.

يصف (بيري أندرسون) شعار حملة الرئيس (بوش "الابن") للوصول إلى البيت الأبيض بانه اختلاف عن النمط المألوف، إذ كانت الحملة تدعو إلى دور أمريكي ذو طابع توجيهي أقل وليس أكثر في العالم عموماً. لتصبح الإدارة الجمهورية بعد أحداث 11 أيلول / 2001م مثالاً على تأكيد الذات الأمريكي العدواني، وعلى استخدام القوة المسلحة لفرض الإرادة الأمريكية. فلأول مرة منذ هجوم (بيرل هاربر) في 1941/12/7م جرى اختراق الأرض الأمريكية. ومن ثم ينبغي أن يكون نوع الجزاء بحيث لايدع للعالم مجالاً للشك بمدى القوة الأمريكية. كان العدو هو (الإرهاب)، ويجب أن تُشن حرب ضد الإرهاب إلى حين اقتلاعه من جذوره، في كل مكان. لتجيء الضربة المضادة من إدارة الرئيس (بوش "الابن") سريعة وكاسحة بغزو أفغانستان في 2001/10/7م، ومن بعدها العراق في 2003/3/19م.

في القسم الثاني من الكتاب، والذي أطلق عليه اسم (المجمع Consilium)، يناقش (بيري أندرسون) ويعطي ملخصاً جيداً ومسحاً ذكياً وممتازاً وذا ملاحظات لأهم الكتابات والمفكرين الذين اثروا في السياسة الخارجية الأمريكية طوال العقود المنصرمة. أمثال: (والتر راسل Walter Russell Mead)، و (بريجنسكي Zbigniew Brzezinsk)، و (فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama). كما صنف (بيري أندرسون) هذا القسم إلى فصول أهما: (الصليبيون، مُثل واقعية، الاقتصاد أولاً).

وأخيراً، يمكن القول ركز هذا الكتاب على ارتباط العاملين (الاقتصادي، والسياسي) ببعضهما البعض، في عرض وتحليل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية، إذ تجاوز التحليل الصحفي الذي غالباً ما يكون سرداً أو حتى سطحياً، في أغلب الاحيان، بمعنى أنه غاص في رغبة الولايات المتحدة لنشر الرأسمالية الليبرالية واستخدامها لفكرة نشر الديمقراطية والحرية، فضلاً عن تبرير عملياتها العسكرية وشن الحروب غير المبررة، أو حتى تشجيع "الإرهاب" في سبيل الحرية.